د. ناجي عبدالله الخرس
إمام وخطيب بوزارة الأوقاف

أعداء الحياة الزوجية

تعتبر الأسرة الركيزة الأساسية لبناء المجتمع، وقد اعتنى الشارع ببسط أحكامها من خلال قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (النساء:١٩).

والزواج في الإسلام ليس مسألة فردية، بل له بعد اجتماعي وإنساني وتربوي، ومن ثم فإن الاعتناء التام والتحصين المحكم لحماية الأسرة من التفكك والفرقة لهما الأولوية لسد الخلل واستدراك الأخطاء التي وقعت من غفلة الوالدين، والاستعمال الخاطئ للأجهزة الإلكترونية من قبل الأبناء، مع ضعف الوازع الديني والثقافة الشرعية.

فكم من بيوت ذهبت عنها السعادة رغم أن الزوجين بذلا وسعهما لتحقيقها، لكنهما وقعا في أخطاء أذهبت جهودهما سدى، أخطاء يحسبها الناس هينة ولكنها بمنزلة عدو يهدم الحياة الزوجية.

العدو الأول: إفشاء الأسرار

البيوت أسرار، وهي أمانة يجب أن نحافظ عليها، البيوت ليست محلا للثرثرة أو الفضفضة للأصدقاء أو حتى للأرحام، إلا في حالة الضرورة فقط وبإذن الزوجين.

ولا يظن أحد أن من يفشي سر بيته لصديقه أو قريبه أنه سيحفظ سرك الذي ضاق به صدرك، وصدق الشاعر حين قال:

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق

وفوق هذا وقبله، فإن حفظك لسر بيتك مطلب شرعي يتعبد به المرء ربه سبحانه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا عسى أحدكم أن يخلو بأهله، يغلق بابا ثم يرخي سترا ثم يقضي حاجته ثم إذا خرج حدث أصحابه بذلك، ألا عسى إحداكن أن تغلق بابها وترخي سترها فإذا قضت حاجتها حدثت صواحبها». فقالت امرأة سعفاء الخدين: والله يا رسول الله إنهن

ليفعلن وإنهم ليفعلون. فقال: «فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة على قارعة الطريق فقضى حاجته منها ثم انصرف وتركها»[1]. وفي رواية: «والناس ينظرون إليه»[2].

وقد حذر النبي ﷺ من كشف الأسرار وتسريب الخلافات الزوجية فقال: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»[3].

تقول إحدى الأمهات: تزوجت ابنتي منذ عشر سنوات، ما اشتكت إلي ولا إلى والدها من زوجها قط، لم تخبرني أبدا عن مشكلة إلا بعد حلها، غاية ما كانت تطلبه مني الدعاء، حتى إنني كنت أعرف أنها تواجه مشكلة عندما تلح علي في طلب الدعاء.

الأسرار أنواع ودرجات

أعظمها: العلاقة الخاصة بين الزوجين، ثم الخلافات بين الزوجين، ثم: خصوصيات البيت.

الأول: العلاقة الخاصة بين الزوجين

فهذه يجب أن تكون في بئر عميقة داخل النفس، وقد مر علينا حديث النبي ﷺ: «الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه»، والإفضاء: أن يصل إليها بالمباشرة والمعاشرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء:٢١).

والثاني: الخلافات بين الزوجين

الخلافات الزوجية أمر طبيعي لا يكاد يخلو منها بيت، لكن إذا وصلت الأمور إلى طريق مسدود، بحيث تكون الخلافات مستمرة يوميا، يكون الحل بالآتي:

١ - الحوار وهو لغة التفاهم، والحوار ليس المقصود منه نقل الكلمات فقط، بل نقل الأفكار والمشاعر والعلاجات.

٢ - البدء بالأمور المتفق عليها، مثل المحافظة على الأولاد.

٣ - الحرص على خفض الصوت، حيث إن أكثر من: ٩٠ في المئة من الخلافات سببها رفع الصوت، فالغضب يصاحبه في الغالب رفع الصوت، عندها تثور المشاعر ويفقد كل منهما التحكم في أقواله وأفعاله.

٤ - استحضار الغاية من الحوار. وهو الوصول إلى الحقيقة أو المصلحة المشتركة، وليست انتصار أحدهما على الآخر، كأن يقول لها: «الحمد لله أنك اعترفت بخطئك»، أو هي تقول: «ألم أقل لك إني أعرف أكثر منك».

٥ - ترك الألفاظ الجارحة أو البذيئة.

والثالث: خصوصيات البيت

لا يجوز نشرها حتى لا تصبح الأسرة كتابا مكشوفا أمام الآخرين أو نشرة أخبار، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ (التحريم:١٠).

كانت امرأة نوح تطلع قومه على سره، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به. وكانت امرأة لوط إذا استضاف لوط أحدا أخبرت أهل المدينة ممن يعملون السوء؛ أي ليأتوا فيفعلوا بهم الفاحشة[4]. وعن الضحاك قال: ما بغت امرأة نبي قط، (فخانتاهما) أي في الدين لا في العرض.

تدخل أهل الزوج وأهل الزوجة

من أهم أسباب زيادة حجم المشكلات، تدخل الأهل، خصوصا إذا كان الزوجان حديثي الزواج، فلا ينبغي أن يكون الأهل أوصياء أو محامين للزوج أو الزوجة، ولا يسمح لهما بالتدخل، إلا إذا طلب الزوجان معا هذا التدخل.

• أسباب تدخل الأهل في الحياة الزوجية:

١ - شعور الأهل بالمسؤولية المستمرة عن الأولاد حتى بعد الزواج.

٢ - صراع الأجيال بين الأبناء والآباء (ما كان صحيحا قبل أربعين عاما لم يعد كذلك).

٣ - إنقاذ الأبناء من تكرار تجربة الزواج الفاشل (تخلي الزوج عن زوجته منذ ثلاثين سنة)، (الأب الذي تعرض للخيانة الزوجية).

أهمية الحكمين

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (النساء:٣٥).

- اختيار الحكمين من أهل الزوجين لمعرفتهما بالزوجين، واطلاعهما على أحوالهما.

- وهذان الحكمان ليسا وكيلين عن الزوجين، وإنما حكمان لهما حق

إصدار الأحكام الملزمة للزوجين، قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥).

- هنا ذكرت الآية أن الحكمين لن ينجحا في التوفيق، إلا إذا أرادا الإصلاح، فالنية سبب لصلاح العمل، ومعنى هذا أنه يجب أن يكون الحكمان على الحياد دون التحيز لأحد.

العدو الثاني: نكران المعروف

مع مرور الأيام تبدي بعض الزوجات وكذلك الأزواج، التسخط والتذمر من الحياة الزوجية التي كانت في الأيام الأولى من الزواج فياضة بالحب والحنان، حتى يصل الأمر إلى استصغار كل جهد فيه معنى العطاء والتعاون والتكافل، ومع كثرة التسخط يغيب الإحساس بالرضا والقناعة.

قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[٥]، وقال ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[٦].

القناعة علامة على الرضا بقدر الله، كما أنها تهون صعوبة الحياة.

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن. قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا، قالت ما رأيت منك خيرا قط»[٧].

وقد ترد الزوجة بأن ما يفعله الزوج إنما هو واجب عليه لا يحتاج إلى شكر، فلا شكر على واجب. لكن الحقيقة أن حاجة النفس البشرية إلى التقدير حاجة فطرية، وهذا من الشكر لله تعالى.

العدو الثالث: المن بين الزوجين

ليس هناك أثقل على النفس، وأضيع للعمل من المن بين الناس، فالمنان ينسى فضل الله فيما عمل وينسبه إلى نفسه، ويتخلى عن الإخلاص الذي هو شرط لقبول العمل.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. فقلت: من هم يا رسول الله فقد خابوا وخسروا؟ قال: المسبل إزاره، والمنان عطاءه، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»[٨].

والمنان: الذي يمن بما أعطى.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيله وتصغيره وستره، فإذا عجلته هنأته، وإذا صغرته عظمته، وإذا سترته أتممته.

فالمن من أحد الزوجين على الآخر، مؤشر على أن العلاقة بينهما في خطر، إذ غالبا ما يحمل المنان شعورا بالتفوق أو بالظلم أو بالفضل، وكلها مشاعر سلبية في العلاقات الزوجية.

العدو الرابع: سوء الظن

حضت الشريعة على الثقة واجتناب سوء الظن بين الزوجين، فالغيرة إذا كانت زائدة عن الحد، تكون شكا واتهاما، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان فتى منا حديث عهد بعرس، قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوما، فقال له رسول الله ﷺ: خذ عليك سلاحك، إني أخشى عليك قريظة. فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة فأهوى إليها الرمح ليطعنها به وأصابته غيرة، فقالت له: اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني. فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش»[٩].

بعض الأزواج مريض بمرض الشك المر الذي يحيل الحياة الزوجية إلى نكد لا يطاق، ويحول استقرار البيوت إلى بركان محموم، فلا يصح أن يسيء الرجل الظن بزوجته، وليس له أن يسرف في تقصي كل حركاتها وسكناتها، وهي كذلك.

الحياة الزوجية نعمة قبل أن تكون مسؤولية، والحياة الزوجية أمانة قبل أن تكون تكليفا، فالحياة الزوجية من أعظم آيات الله، فلنحافظ عليها.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١).

الهوامش

١ - الترغيب والترهيب للمنذري: ١٢٧/٣، والحديث له شواهد تقويه.
٢ - سنن أبي داود: ٦٢٧/٢، وهو في صحيح الجامع: ٧٠٣٧.
٣ - رواه مسلم: ١٥٧/٤.
٤ - تفسير ابن كثير: ١٩٨/٨.
٥ - أبو داود: ٤٨١١، صحيح الألباني.
٦ - الترمذي: ٢٥١٣.
٧ - البخاري: ٢٩، ومسلم: ٩٠٧.
٨ - أخرجه ابن ماجه: ٢٢٠٨، وصححه الألباني.
٩ - مسلم: ٢٢٣٦ - ٢٨٩٤.